الفصل الثامن عشر

مرض أبي بكر ووفاته

قضى أبو بكر على ردّة العرب وعلى الثورة التى اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردّة فأشعلت شبه الجزيرة ناراً . ثم إنه فتح العراق وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس، كما تقدم فى فتح الشام وساير النصر أعلامه فيها إلى دمشق . وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبوبكر يقيم الحكم فى البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى ، وإذا هو يجمع كتاب الله ، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً فى جمعه بين اللوحين . هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرّت الدين الحنيف فى منزل الوحى ، ومهّدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولانتشار هذا الدين الحنيف فيها ، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل . وكان ذلك كله فى سنتين وثلاثة أشهر .

ما تم فى خلافة أبى بكر

أليست هذه بعض معجزات التاريخ ؟! فى سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ثائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب ، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجّهان حضارته ، لتنهض بعبء الحضارة فى العالم قروناً بعد ذلك . هذا أمر لم يسجّل التاريخ مثله ، فلا عجب أن يقتضى من أبى بكر مجهوداً تنوء به العصبة أولو القوة . أما وقد تخطى أبو بكر الستين يوم بويع ، فطبيعى أن يهيض هذا المجهود قوته وأن يعجّل به إلى لقاء ربه .

ولعلك بعد الذى تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تقدّر هذا المجهود وما كان له من أثر . بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به رجل إلا إذا أوتى من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون . وهذا ما آمن به أبو بكر ، ولهذا نقش على خاتمه : « نعم القادر الله » .

الزعم بأنه مات مسموماً

عجّلت عظمة المجهود وتقدم السن وفاة الخليفة الأول، وإن جرت رواية

فى تعليل وفاته بأن اليهود دسوا له السم فى طعام تناول منه عتّاب بن أسيد معه، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيات ثم كف، وأن هذا السم كان بطىء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ، ولذلك مات عتاب بمكة فى اليوم الذى قُبض فيه أبو بكر بالمدينة. وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة . ومما يزيد من تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود فى خلافته نزاع ، وأن اليهود جلوا منذ عهد رسول الله عن المدينة .

رواية عائشة فى مرضه ووفاته

والرواية الراجحة فى مرض أبى بكر ووفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة وإلى ابنه عبد الرحمن ، قالا : كان أول ما بدأ مرض أبى بكر أنه اغتسل فى يوم بارد فحُمّ خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى الصلاة ؛ وكان يأمر عمر ابن الخطاب أن يصلى بالناس .

على أن أبا بكر لم يفتأ فى الأسبوعين اللذين قضاهما فى مرضه إلى وفاته دائم التفكير فى شؤون المسلمين ، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولىّ أمرهم . فقد كان قوىّ الشعور منذ مرض بأن أجله جاء ، وأنه ملاق ربه . وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئنًّا له ، لأنه كان فى السن التى اختار فيها رسول الله الرفيق الأعلى ، ولأنه كان يشعر بأنه أدى لله حقه . قيل له يومًا : لو أرسلت إلى الطبيب ! فكان جوابه : قد رآنى . قيل : فما قال لك ؟ قال : إنى أفعل ما أشاء . يشير إلى أنه وكل الأمر لله ، وأنه سعيد بقضاء الله، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه .

تفكير أبى بكر فى مصير المسلمين بعده

وأكثر ما شُغِل به أبو بكر أثناء مرضه إشفاقه من مصير المسلمين بعده. لقد ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار بسقيفة بنى ساعدة حين مات النبى ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته . ولئن اختلفوا حين وفاته ليكوننّ اختلافهم أجسم خطراً . فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون سائر العرب ، بل لقد جاهد العرب جميعًا ولا يزالون يجاهدون فى العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قُبض واختلفوا لم يقف خلافهم فى حدود سقيفة بنى ساعدة ، بل يتخطاها إلى مكة والطائف ، وقد ينتقل إلى اليمن ، وعند ذلك تعود الثورة تتلظى فى بلاد العرب . وهى

إن عادت لم يكن مدارها ركناً من أركان الدين ، بل السلطان وولاية الأمر . واختلاف الناس على أمور الدنيا أشد إثارة للشر وإطارة لنار الفتنة . وما أجسم الخطر من ذلك على الإسلام والمسلمين فى وقت يواجهون فيه الأسدين فارس والروم ! فكيف يتلافى أبو بكر هذا الخطر ، وكيف يجنبُ المسلمين ما ينشأ عن الفتنة من شرّ مستطير ؟

لماذا استخلف أبو بكر على حين لم يستخلف رسول الله

فكر فى هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وألهمه الله الرأى وعزم له فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر من بعده ، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد قُبض ولم يستخلف . ولكن ذلك كانت فيه لله حكمة ، وحكمته ألا يظن الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المسلمين من عند الله ، فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المسلمين من بعدُ على أبى بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف برأيه ، وبإرادة المسلمين . ولن يكون لخليفته على المسلمينَ إلا ما كان لأبى بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبى بكر .

مشاورته أولى الرأى فى استخلاف عمر بن الخطاب

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عيدان من حوله من أولى الرأى جميعًا فى عهد النبى ، وقد عجم عيدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر ابن الخطاب خير من يخلُفه . لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد يثقُل أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرنى عن عمر بن الخطاب . قال عبد الرحمن : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلمنا به . قال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقًا ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمقته فرأيته إذا غضبت على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لِنتُ له أرانى الشدة عليه . وسكت هنيهة ثم قال : لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئًا .

ودعا الصدّيق عثمان بن عفّان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :

يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر . قال عثمان : أنت أخبر به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ! قال عثمان : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . قال أبو بكر ؛ يرحمك الله يا أبا عبد الله ! والله لو تركته ما عدوتك ! لا تذكرنّ مما قلت لك ولا مما دعوتك له شيئاً .

ولم يكتف أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان ، بل شاور كذلك سعيد بن زيد وأَسَيْد بن حُضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع بعض أصحاب النبى بمشاورات أبى بكر وأنه يريد استخلاف عمر ، فأشفقوا من شدة ابن الخطاب وغاظته أن يفرّق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يُهيبوا بأبى بكر ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة ابن عبيد الله : «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمراً علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! » . هنالك غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزّه : أجلسونى ! فلما أجلسوه وجّه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : « أبالله تخوّفوننى ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول ؛ اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك » ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عنى ما قلت لك مَنْ وراءك » .

اعتراض المعترضين على استخلاف عمر

واضطجع أبو بكر وقد هدّه هذا الحوار ، فانصرف عنه القوم لم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل بل خرج عبد الرحمن معهم ثم عاد إليه صبح اليوم التالى ، وقال يحييه وقد جلس إلى جانب سريره : « أصبحت والحمد لله بارئا » . قال أبو بكر . « أتراه ؟ » . قال : نعم ! فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدث الصديق وكأنما عنّاه ما حدث بالأمس : « إنى ولّيت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورِم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » . واستطرد فى حديث أحس معه عبد الرحمن بما يغص نفس الخليفة من ألم لحديث القوم ، فقال له : «خفِّضْ عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك . إنما الناس فى أمرك بين رجلين ؛ إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ،

ولم تزل صالحًا مصلحاً » .

كتاب أبي بكر باستخلاف عمر

واطمأن أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأملاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب من الإثم . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم ختم الكتاب .

وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا بكر أملى عثمان حتى إذا بلغ « إني استخلفت عليكم » أغمي عليه قبل أن يملي اسم عمر بن الخطاب ، فكتب عثمان في غيبوبة أبي بكر « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ عليّ ، فقرأ عليه فكبّر أبو بكر وقال : «أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي » ! . قال عثمان : « نعم » وأقرّ الصديق ما كتب ، وقال له : « جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله » !

خشي أبو بكر مع ذلك كله أن يختلف الناس من بعده ، فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عُمَيس ممسكته موشومة اليدين ، وقال يخاطب من بالمسجد جميعًا : « أترضون بمن أستخلف عليكم ، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا ولّيت ذا قرابة ، وإني قد استخلفت عمر ابن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » : فقالوا . « سمعنا وأطعنا » .

وصية أبي بكر لعمر بن الخطاب

وفي بعض الروايات أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى عليه أبو بكر وصيته وختمها ، فأبرز لهم الكتاب مختومًا وقال لهم : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم ، وبايعوا ابن الخطاب . فلما بايع الناس دعا أبو بكر

عمر فأوصاه بما أوصاه به ، على تعبير ابن سعد فى الطبقات[١].

وإذ فرغ أبو بكر من استخلاف عمر واطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدّم . روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يهوّن على أبى بكر علّته وما يدور بخاطره من أمر المسلمين ، ويذكر له أنه لا يأسى على شىء من الدنيا ، فقال أبو بكر : « أجَلْ إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن ودِدْت أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن وددت أنى فعلتهن ، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن . فأما الثلاث اللاتى وددت أنى تركتهن ، فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب[٢] . ووددت أنى لم

الصديق يحاسب نفسه على ما فعل وما ترك وما نسى أن يسأل عنه رسول الله

---

(١) أوردت بعض الروايات نص هذه الوصية ، وهو ما يأتى : « إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل . وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله » . وقيل إن عمر لما خرج من عند أبى بكر رفع الصديق يديه وقال : « اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به اعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك . أصلح اللهم واليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته » !.

وليس يسيراً علينا أن نتثبت من صحة الرواية فى الوصية ولا فى الدعاء . بل لعل لمن شاء أن يرتاب فى نسبة بعض ما انطويا عليه إلى الصديق رضى الله عنه . وحسبنا أن نذكر عبارته الأخيرة فى الوصية : « اجعله من خلفائك الراشدين » ونذكر إلى جانبها إنكاره على من دعاه « خليفة الله » وقوله : ولكنى خليفة رسول الله ، لنتبين وجه الحجة لمن يرتاب . فإذا أضفت إلى ذلك ما فى تاريخ أبى بكر من اختلاف الروايات ومن ضعيفها كان حقاً علينا أن نتلقى ما يروى عنه فى شىء كثير من الحذر .

(٢) لا يذكر الذين ينكرون تخلف على عن البيعة هذه العبارة . ولا يذكر بعض الرواة ما يقال من أن أبا بكر ود أن يسأل رسول الله فى أمور منها هل للأنصار حق فى ولاية الأمر .

أكن حرقت الفجاءة السُّلمى وأنى كنت قتلته سريحًا[1] أو خليّته نجيحاً . ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين — يريد عمراً وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً. وأما اللاتى تركتهن، فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلىّ أنه لا يرى شرًّا إلا أعان عليه. ووددت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القَصّة، فإن ظفر المسلمون ظفروا ، وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مدد . ووددت أنى كنت إذ وجّهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يدىَّ كلتيهما فى سبيل الله — ومد يديه . ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد . ووددت أنى كنت سألته : هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة فإن فى نفسى منهما شيئًا » .

نزول أبى بكر للمسلمين عما أخذ من بيت مال المسلمين

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبى بكر وما دار بخاطره أثناء مرضه . فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يُصلح شؤون المسلمين ، وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال ما يُصلح به نفسه وعياله . فلما رأى أنه مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال، بل قال : « ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لم أصب من هذا المال شيئًا، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . واستخلص عمر ثمن هذه الأرض ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر ، وجعل يقول : « يرحم الله أبا بكر ! لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ! » .

وفى رواية أن عمر قال هذه العبارة لأهل أبى بكر حين أبلغوه مشيئته فى هذا الأمر ثم أردفها بقوله : « وأنا والى الأمر من بعده ، وقد رددتها عليكم » .

وتجرى رواية ثالثة بأن أبا بكر توفى وليس عنده دينار ولا درهم ،

---

(١) السريح، السهل ، أو العجلة .

وإنما ترك عبداً كان يحمل صبيانه ، وناضحًا يستقى[1] بستانًا له ، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم ، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يُفرغ منه. فلما حملت إلى عمر بكى وقال : « لقد أتعب أبو بكر مَن بعده تعبًا شديداً ! » .

ولسنا نثق بصحة هذه الرواية وإن كانت البينات قائمة على أن أبا بكر إن كان قد ترك شيئًا بعده فإنما ترك غير كثير . فقد أوصى بخمس ماله وقال : « آخذ من مالى ما أخذ الله من فىء المسلمين » ، أو قال : « لى من مالى ما رضى ربى من الغنيمة » . ولعل بعضهم ودّ لو أن أبا بكر أوصى بأكثر من الخمس ، فأجابه : « لأن أوصى بالخمس أحب إلىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلىّ من أن أوصى بالثلث ، ومن أوصى بالثلث فلم يترك شيئًا » . فلو أن أبا بكر لم تكن له تركة وصح ما روى عن عائشة أنها قالت : « ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهمًا ضرب الله سِكّته » ، لما أوصى بالخمس ؛ ولا بما دون الخمس ؛ فإنما يوصى من يملك شيئًا وإن قلّ .

أبو بكر يسترد ما وهبه لعائشة ابنته ليكون قسمة بين ولدية وبنتيه

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضًا بالعالية ، كان النبىّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أمّ المؤمنين . فلما حُضر وعائشة تمرضه جلس فتشهّد ثم قال : « يا بُنية ، إن أحبّ الناس غِنًى إلىّ بعدى أنت ، وإن أعزّ الناس فقراً علىّ بعدى أنت . وإنى كنت نحلتُك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحبّ أن ترديها علىّ فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباها فى ذلك فقال : « ذو بطنِ ابنة خارجة فإنى أظنها جارية » .

فكّر أبو بكر أثناء مرضه فيمن يخلُفه على المسلمين ، وفكر فى رد المال الذى جعلوه له حين خلافته ، وفكر فيما يُوصى به من تركته ، ونكر فيما كان نحاه ابنته عائشة ليرده على ورثته . فكر فى هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئًا ، وعلى أن يلقى الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذه الله به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر فى الموت وفى الأهبة له ، فأوصى أن

---

(١) الناضح : البعير أو الثور أو الحمار الذى يستقى عليه الماء . وفى بعض الروايات « لقحة » بدل « ناضح » واللقحة : الناقة القريبة العهد بالنتاج .

يكفَّن فى ثوبين له كان يلبسهما وقال : « كفنونى فيهما فإن الحىّ أحوج للجديد من الميت »[1]. وأوصى أن تغسّله امرأته أسماء بنت عميس ، فإن لم تستطع استعانت بعبد الرحمن ابنه . وإنه لنى شغل بهذه الأمور إذ أقبل المثنى من العراق فأذن الصدّيق له ، فلما طلب منه أن يُمده بمن عاد إلى الإسلام من أهل الردة أوصى عمر أن يفعل وألا يُشغل بوفاته عن أمور المسلمين .

وصية أبى بكر لكفنه

وبدأ أبو بكر يعالج سكرات الموت وعائشة ابنته إلى جانبه ، فلما رأته كذلك تمثّلت بهذا البيت من قول حاتم :

لَعَمْرُكَ ما يُغْنى الثَّراءُ عن الفَتى
إذا حَشْرَجتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

فنظر الصدّيق إليها كالغضبان ثم قال : ليس كذلك يا أمّ المؤمنين ، ولكن : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ».

ولما ثقُل جلستْ عند رأسه وتمثّلتْ :

وكلّ ذى إبلٍ موروثُ وكلّ ذى سلَبٍ مسلوبُ
وكل ذى غَيبةٍ يؤوب وغائبُ الموتِ لا يؤوب

رب توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين

وقيل إن أبا بكر هو الذى تمثّل بهذين البيتين ، وأن آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِين ».

وقبض أبو بكر يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة (٢٢أغسطس سنة ٦٣٤م)، وهو فى الثالثة والستين من عمره . توفى مساء بعد ما غابت الشمس ، ودُفن ليلا ، وتولت زوجه أسماء بنت عميس غسله وعاونها ابنه عبد الرحمن إذ كان يصبّ

---

(١) كثرت الروايات فى وصية أبى بكر بتكفينه ، وكلها مع ذلك منسوبة لعائشة ، فمنها أنه كان عليه ثوب فقال : إذا أنا مت فاغسلوا ثوبى هذا وضموا إليه ثوبين جديدين وكفنونى فى ثلاثة أثواب قالت عائشة : ألا نجعلها جدداً كلها ؟ فقال : لا ! إنما هو للمهلة ، الحى أحق بالجديد من الميت . ومنها أن أبا بكر سأل عائشة فى كم كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فى ثلاثة أثواب . قال اغسلوا ثوبى هذين وابتاعوا لى ثوباً آخر . قالت : يا أبت إنا موسرون . قال : أى بنية ! الحى أحق بالجديد من الميت ، وإنما هى للمهلة والصديد . وثم روايات أخرى أوردها ابن سعد فى الطبقات . (المهلة ، مثلثة الميم : القيح والصديد) .

الماء . ثم إنه حمله على السرير الذى حُمل عليه رسول الله إلى المسجد ليدفن كما أوصى إلى جواره صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة .

ووضع الجثمان فى المسجد بين القبر والمنبر ، وتولى عمر صلاة الجنازة فكبّر أربعًا ، ثم نُقل الجثمان إلى القبر ودخل معه عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن أبى بكر . وأراد عبد الله بن أبى بكر أن يدخل ، فقال له عمر : « كُفيت » . ودفن أبو بكر فى حفرة حفرت له إلى جنب النبى ، وجعل رأسه إلى كتف رسول الله ، وألصق اللحد باللحد . فلما أهالوا عليه التراب خرجوا وقد ودعوا خليل رسول الله وصفيَّه بعد أن جمع بينهما الموت ، فودعوا أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأحبهم إليه وآثرهم عنده ، وأشدهم إيمانًا بالله ورسوله .

وقد ارتجَّت المدينة لوفاة أبى بكر ، وتولَّى الناس دهش كدهشهم يوم قُبض رسول الله ، وأقبل علىّ بن أبى طالب مسرعًا باكيًا حتى وقف بالباب فقال :

تأبين على بن أبى طالب أبا بكر

« رحمك الله يا أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلامًا ، وأخلصهم إيمانًا ، وأشدهم يقينًا ، وأعظمهم غِنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خُلقًا وفضلا وهَدْيًا وسَمْتًا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله فى كتابه صدّيقًا فقال : « والَّذِى جاء بالصِّدْق وصدَّق بِهِ » . يريد محمداً ويريدك . كنت والله للإسلام حصنًا ، وللكافرين ناكبًا . ولم تَضْلِلْ حُجتك ، ولم تضعُف بصيرتك ، ولم تجبُن نفسك ، كالجبل لا تحرّكه العواصف ، ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا فى بدنك ، قويًّا فى دينك ، متواضعًا فى نفسك ، عظيمًا عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ؛ فالضعيف عندك قوىّ ، والقوىّ عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوىّ ، وتأخذه للضعيف . فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ! » .

تأبين عائشة أم المؤمنين أباها

وأبَّنته ابنته عائشة أم المؤمنين فقالت : « نَضَّر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك؛ فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزءك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجلّ ليعِدُنا بالصبر عنك حسنَ العوض. وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك. فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك » .

تأبين عمر ابن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب أوجز فى القول ، وكأنما عقد الرزء لسانه . قال حين دخل على أبى بكر بعد موته : « يا خليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تعبًا وولیتهم نصَبًا . فهيهات من شقّ غُبارك ، فكيف اللحاقُ بك » .

وتداولت أنباء الوفاة حواضر العرب وبواديها ، فهزت كل نفس وأسبلت الدمع من كل عين ؛ واضطرب أهل مكة لسماعها ، وبلغ اضطرابهم سمع أبى قُحافة فسأل : ما هذا ؟ قيل : توفى ابنك . قال : رزء جليل ! من قام بالأمر بعده ؟ قالوا : عمر . فقال : صاحبه ، ولم يزد . وأرادوا أن يردوا عليه حقه مما ترك أبو بكر فأبى وقال : بنوه أحق به . وما كان لهذا الشيخ الفانى بعد هذا الرزء الجسيم إلا أن يلحق ابنه فى جوار الله، فتوفى بعد ستة أشهر من وفاته .

أفتدل هذه الكلمات الوجيزة التى نطق بها أبو قحافة على أنه كان أجمل العرب صبراً لقضاء الله فى خليفة رسول الله ؟ ! أم أن جزعه لوفاة ابنه هو الذى أسكته ، كما أنه هو الذى عجل به إلى لقاء ربه ؟ ! ما نحسب أباً يتجلّد للمصاب فى ابنه إلا تجمّلا ، وإن تقدّمت به السن وأدركه الهَرَمُ . لذلك كان حزن أبى قحافة غير حزن سائر العرب . لقد حزن العرب إشفاقًا مما يخبئه الغيب ، بعد أن غيبوا فى التراب رجلا كان البِرّ بهم ، والعطفَ عليهم ، وإنكار الذات فى سبيلهم ، وكان إلى ذلك موفقًا كل التوفيق فى ولاية أمرهم وسياسة دولتهم . أما أبو قحافة فحزن لأن أعزّ أجواء نفسه عليه ذهب ، فانهدّ ركنه وتداعت حياته .

موقف عمر من نوح آل أبي بكر عليه

وفدَح الخطب أمَّ المؤمنين عائشة ، فأقامت النوح على أبيها وشاركتها أخته أمّ فروة وزوجتاه أسماء بنت عميس وحبيبة ابنة حارجة ومن اجتمع إليهن من نساء المدينة . فلما بلغ عمر ما يصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النواح فلم ينتهين . فقال لهشام بن الوليد : ادخُلْ عليهن فأخْرِج إليّ أم فروة ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر . وسمعت عائشة قول عمر فقالت لهشام : إني أحرِّج عليك بيتي . قال عمر : ادْخُلْ فقد أذنت لك . ودخل هشام فأخرج أمّ فروة إلى عمر ، فعلاها بالدِّرة فضربها ضربات وهو يقول : تُرِدن أن يعذّب أبو بكر ببكائكن ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » . وتفرق النوائح حين رأين ما أصاب أمّ فروة ، ولم تستطع عائشة أن تحول بين عمر وما أراد .

ولعل عمر قد أزعجه هذا النوح لشدة جزعه على أبي بكر . فليس أوجع لنفوسنا من نوح النسوة على ميت نحبه ويحز الألم في قلوبنا لفراقه . وحقّ لعمر ولكل مسلم أن يشتد يومئذ جزعه . بل إننا اليوم لنشاركهم في حزنهم وفيما كان من مخاوفهم ، مع علمنا بما أفاء الله على المسلمين في عهد عمر من نصر ، وما أراد من فضله أن يتوج به سياسة أبي بكر من نجاح وفوز . فلم يمر الإسلام منذ هاجر النبي إلى المدينة بمثل ما مرّ به في عهد الصدّيق من محنة ، ولم تسم نفوس المسلمين فوق البأساء والضراء وحين البأس سمُوها بفضل إيمانه وعزمه . لقد امتحن الله المؤمنين في خلافته فأحسنوا البلاء ، واجتاز الدين الناشيء بفضل إيمان الخليفة وعزمه مناطق الأعراف ، صُلْبًا قويَّ الحياة ، كفيلا بأن يظل العالم بلواء التقدم والحرية ، وأن يرفعه إلى حضارة سامية هي وحدها الجديرة بالإنسانية . وقد كانت روح أبي بكر من مصادر هذه القوة . أفكان الإسلام لا يزال في حاجة إلى فيضها ؟ أم أنه قد تخطى خلال هاتين السنتين وثلاثة الأشهر مناطق الخطر ، فآن له أن يمتد في طمأنينة وأمن ، وأن يمد إلى الإنسانية المضطربة يوم ذاك يد النجدة ليُقرَّ بينها الإخاء والسلام ! ! .

أثر أبي بكر في حياة الإسلام

لعلنا لا ندري ماذا كان يحدُث لو لم يستخلف أبو بكر عمر ، ولو لم يخرج على ما أخذ به نفسه ، ولم يصنع ما لم يصنعه رسول الله . فقد كان هذا

العمل الأخير فى حياة الصديق حلقة قوية فى السلسلة التى رفعت الإسلام مكانًا عليا ، والتى أراد الله أن يتم بها كلمته وينصر دينه . تُرى لو أن أبا بكر اختار عثمان أفكان الإسلام ينتشر ما انتشر فى عهد عمر ، ثم يزداد فى عهد خليفته انتشاره ؟ ! أم أن اختيار عمر كان توفيقًا من الله للصدّيق فكان الفاروق بطل الموقف ورجل الساعة ؟ ! .

رحم الله أبا بكر

لا غناء اليوم فى أن نعرض لهذا الأمر بحكم . لكن الذى لا مرية فيه أن أبا بكر وعمر كانا يتفقان فى جوهر النفس على تباين مظاهرهما لينا وشدة . صَفَّى الإيمان بالله نفسيهما فتنزّهتا وطهُرتا وسمَتا فوق خبائث الدنيا وتجردتا لله ، فكانتا العدل والرحمة والإيثار والحرص على أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله . بذلك كان استخلاف عمر عملا صالحًا أراد الله به أن يُعِزَّ دينه ، وأن يُقر به فى الأرض كلمة الحق ، وأن يعلى به منار البِرِّ والتقوى .

رحم الله أبا بكر ورضى عنه وألحقه بالصالحين ! .

obeikandl.com

خاتمة

التنقل المحتوم للحضارة

ذكرت فى تقديم هذا الكتاب أن عهد أبى بكر له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام ، وأنه ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب والإجلال . ولعل القارىء الذى بلغ من تلاوة الكتاب هذه الخاتمة ، ووقف على ما تمّ خلال هذا العهد القصير من جليل الأعمال ، يرى رأيى فيما ذكرت ، ويقف لذلك معى مليًّا يستخلص من هذا العهد عبرته البالغة ، ليرى كيف تنتقل حضارة الأمم من حال إلى حال بتفاعل عناصر الاجتماع خلال الأجيال والعصور ، فإذا جاء الأجل الذى خطه القدر فى لوحه لم يكن من هذا الانتقال بدٌّ ، ولم تستطع قوة فى العالم أن تقف فى سبيله أو تحول دونه .

مكانة فارس والروم من عالم يومئذ

إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونُظم ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثّل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير . يمثل الروم حضارة اللاتين واليونان والفينيقيين والفراعنة . وتمثل فارس حضارة إيران والهند ومذاهب الشرق الأقصى مجتمعة . تمتد الأولى من أواسط أوربا بل من غربها الأقصى إلى شرق بحر الروم ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وتمتد الأخرى من أواسط آسيا بل من شرقها الأقصى إلى حوض دجلة والفرات ، ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتدُّ بينهما جدباء جرداء إلا من قبائل نزحت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو إلى الفرس حيثما يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ثم تأوى حيثما يطيب لها المرعى . والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتهما وعظمتهما ، لا يسكّن تعاقب القرون من حدتهما ، ولا تجدان فى غير الحروب وسيلة لإرواء ظمئهما إلى المجد ، واستكمال حظهما من الترف والنعيم .

أفأعوزت إحداهما أسباب العيش فكان ذلك سبب ما اتصل بينهما من

حروب أفنت كلتيهما فيها على القرون ما لا يحصى من مهج ، وبيعت فيها الأرواح بيع السماح ؟ كلا ! بل كانت الإمبراطوريتان مترعتين بخيرات البلاد التى تحكمانها . كانت الروم تنعم بما تغل مصر وسائر ممتلكات قيصر من زراعة وما تنتج من صناعة ، وبما كان لمصر وسائر بلاد الإمبراطورية من تراث ضخم فى العلم والأدب والفن . وكانت فارس تنعم بخيرات البلاد الخاضعة لسلطان كسرى ، والتى كانت تمدها بكل ثمراتها . لكن كل واحدة من الدولتين كانت تزعم لنفسها حقًّا فى المتاع من نعم الحياة بما لا ينعم به غيرها ، ولا ترى لذلك بأسًا بأن تغصب غيرها ما فى يده من أسباب هذا المتاع . أليست لها القوة وفى متناولها أسباب البطش ؟ ! وحق القوة بعض ما آمنت وتؤمن به الإنسانية أممًا وأفراداً . ألا يرى أحدنا مواد الترف حاجات ماسة لا غنى له عنها ، ثم لا يغير من رأيه هذا ألا يجد جاره الكفاف لنفسه ولذويه ! . والقوانين تُشرِّع دفاعًا عن حق القوة . ذلك بأن القوة هى قوام القانون تنفذه وتلزم الناس احترامه . فباسم القانون ينال القوى ما يراه حاجة ماسة لحياته . وباسم القانون وباسم الحضارة تثير الدول الحروب لتبلغ من أسباب الترف ما يكفل المستوى الذى تراه لائقًا لمكانتها بين سائر الأمم .

الحرب وحق القوة

لهذا ظلت الإمبراطوريتان تقتتلان سبعة قرون متوالية ، فتبهران العالم بقوة بأسهما وسمو حضارتهما . يحالف النصر إحداهما ، ويحالف الثانية تارة أخرى ، فلا تنهنه الهزيمة من هيبة أيهما ؛ لأن الأمم الصغيرة من حولهما كانت ترى دورة الدوائر بينهما ، وترى مغلوب اليوم منهما غالبًا غداً ، فتحسب أن القدر فرضهما على الوجود فرضًا ، وأنهما من القوى الثابتة فى دورة الكون كالشمس والقمر والكواكب سواء .

وبينما لا تعرف الأمم إلا اسميهما ، ولا تتحدث إلا بفعالهما ، إذا أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع أن تنهض . وأنَّى لشبه جزيرة العرب ببواديها الماحلة وصحاريها الجرداء أن تبعث أمة أو تنشىء دولة ! وأنَّى لقبائل هذه البادية ، وكل ما تعتمد عليه فى حياتها الغزو والسلب ، أن تفكر فى حضارة بله أن تقيمها ! ! لقد كان كسرى فارس يسميهم رُعاة الإبل والغنم ، وكان قيصر

نهوض الأمة العربية وتغلبها على فارس والروم

الروم يصفهم بالحفاة العُراة الجياع . أفمن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمة يعبأ بها الروم أو يهتم لها الفرس ! .

مع ذلك نهضت هذه الأمة ، فواجهت الأسدين فارس والروم ، وحاربتهما وتغلبت عليهما . وقد رأيت من خلال هذا الكتاب أن العرب لم يتغلبوا على الأسدين بتفوق فى العُدة أو فى العدد ، وإنما تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذى لا يتزعزع . وبهذا الغلب نشأت الإمبراطورية الإسلامية التى حملت عبء الحضارة فى العالم عشرة قرون تباعًا ، والتى نشرت الإسلام فى أنحاء الإمبراطوريتين وفيما وراءهما : فى الهند والصين والتركستان وغيرها من ممالك آسيا ، وفى مصر وما وراءها إلى المحيط الأطلنطى من بلاد إفريقية ، وفى عاصمة قسطنطين وفى روسيا وأسبانيا وغيرها من أمم أوربا .

كيف حدثت هذه المعجزة

كيف حدثت هذه المعجزة ؟ ! كيف تغلب العرب مع قلة عددهم ، وضعف حضارتهم ، وتأخر علومهم وفنونهم ، على الفرس وعلى الروم ولهم من العدد ومن الحضارة ومن العلوم والفنون ما لا يزال التاريخ يحدّث عنه فى إكبار أى إكبار ؟ ! أهى المصادفة التى لا تفسير لها من سنن الكون ؟ ! كلا ! فلو أن ما حدث فى عهد أبى بكر أثمرته المصادفة لما كتب له أن يبقى وأن يتصل على الزمان ، واوقف الفرس والروم فى وجه العرب فردوهم على أعقابهم . لكن ما حدث فى عهد عمر وعثمان من توغل العرب فى أراضى الإمبراطوريتين العظيمتين والقضاء عليهما ، لا يدع مجالا للريب فى أن ما حدث كان حتمًا قضت به سنن الكون ، ولذلك اطرد فكانت الحضارة الإسلامية ثمرته . وما كانت المصادفة لتتمخّض عن مثل هذه الحضارة التى ازدهرت فى ظل لوائها كل مقومات الحضارة ، فقد اجتمع للحضارة الإسلامية من العلم والأدب والفن وسائر ألوان الثقافة ما حل فى العالم محل الثقافة اليونانية بعلمها وأدبها وفنها وتفكيرها ، وذلك بعد أن كانت اليونان وارثة مصر وأشور والحضارة الإنسانية الأولى جميعًا . لا مفرّ إذن من أن نتلمس لهذه الظاهرة الكونية العظيمة تفسيراً من سنن الكون يكشف لنا عن السر فى قيام هذه الحضارة ، وامتداد سلطانها فى العالم ، واستقرارها فيه دهراً طويلا .

ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهَرَم على نحو ما يصيب الأفراد . فإذا هَرِمت وشاخت دب الفساد إلى كيانها ، فأدى إلى انحلالها ، وإلى قيام أمة شابة وحضارة شابة مقامها .

عوامل الفساد فى حياة فارس

أشرت غير مرة فى غضون هذا الكتاب إلى عوامل الفساد والاضطراب التى كانت تظهر الحين بعد الحين فى فارس وفى الروم . وقد استفحلت هذه العوامل فى القرن السادس المسيحى واشتد خطرها ، فكان من أثرها فى فارس أن اضطرب بلاطها ، وانتشرت الدسائس فى جوها ، وتنازع الطامعون فى عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورها . بذلك فسد الرأس ، فامتد الفساد منه إلى ما دونه ، فكثرت مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ، فانكمشوا يتوفرون على رزقهم يكثّرونه ، ويلتمسون النبل والجاه عن طريقه . هذا إلى أن الطوائف فى فارس كانت كثيرة العدد كثيرة المطامع ؛ تريد الحكم تستذل به رقاب السواد ، وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النّعمة والمتاع . لذلك انحلت العصبية القومية فى الفرس ، وانهارت القوة المعنوية فى نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو مُتع الحياة ولينها . طبيعىٌّ وذلك شأنها أن يتداعى ركنها ، وأن تضعف مقاومتها ، وبخاصة إذا واجهتها قوة تسمو على الحياة وتتخذ المثل الأعلى شعارها .

وفى حياة الروم

ولم يكن أثر هذه العوامل فى الإمبراطورية الرومية دونه فى فارس . فقد نجمت الثورات فيها لأسباب تتصل بالنزاع بين الفرق المسيحية حينًا ، وبالنزاع على العرش حينًا آخر ، فكان ذلك سبب تدهورها وانحلالها . ومع أن جُسْتِنيان استطاع أن يردّ إليها أعظم الاعتبار فى نظر العالم يومئذ ، بجلال حكمته ونزاهة عدله وقوة بأسه ، فقد كانت عوامل الانحلال أعمق أثراً من أن يتلافاها خلفاؤه ولم يكونوا فى مثل حكمته وبأسه . فلما كان أول القرن السابع المسيحى تولى فوكاس عرش الإمبراطورية وساسها بيد من حديد . عند ذلك قام هِرقلْ حاكم إفريقية الرومية بالثورة عليه ، ثم انتهى به الأمر إلى الظفر به وقتله واعتلاء العرش مكانه . وكان الفرس قد غلبوا الروم فى نهاية عهد فوكاس وبدء عهد هرقل فلما حانت الفرصة أخذ هرقل بالثأر منهم ، فحاربهم وغلبهم

ووطد بذلك سلطانه فى الإمبراطورية ، حتى لقد خيّل إلى الناس جميعاً أن عهد جستنيان عائد لامحالة . ثم إنه حاول أن يزيد سلطانه تثبيتاً بالقضاء على أسباب الضعف الناشئة عن اختلاف الفرق الدينية فى أرجاء ملكه ، وذلك بتوحيد المذهب المسيحى وفرضه على الناس فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وليتم غرضه بطش بخصوم المذهب الرسمى فى مصر وفى غير مصر ؛ فكان ذلك سبباً فى قيام الثورات واندلاع لهيبها ، ثم كان سبباً فى ازدياد الضعف الذى حاول هرقل أن يُخلّص الإمبراطورية منه[1] .

كانت هذه العوامل تنخر فى عظام الإمبراطوريتين العظيمتين وتنحدر بهما سراعاً إلى مهاوى الشيخوخة . فكان من مقتضيات سنن الكون أن تقوم أمة شابة مقامهما ، توجه العالم وتكيف مصايره . والنجاح مكفول لهذه الأمة ما حملت إلى العالم رسالة يشوق الناس سماعها ، ويرون فيها ما ينقذهم من شرور طالما ناءوا بها ورزحوا تحت أعبائها .

ما كان عالم يومئذ يتطلع إليه

لم يكن عالم يومئذ يشقى بأسباب الحياة المادية ؛ فلم يكن همه الأول رفع مستوى العيش . إنما كانت تُعوزه الطمأنينة إلى الحياة والمتاع بالحرية فيها . فقد كان الناس لا يتحركون ولا يسكنون أحراراً فى حركتهم وفى سكونهم ، بل كانت العقائد والقوانين السائدة يومئذ تكبّلهم بقيود شلّت حركتهم وأهدرت حريتهم . لم تقف هذه العقائد والقوانين عند المبادىء العامة التى تكفل للفرد حريته فى ظل النظام ، وتكفل بذلك للجماعة أن تطوّر إلى ناحية الكمال بجهود أفرادها الأحرار وجماعاتها الطليقة ، بل دخلت القيود مع الفرد داره ومِخْدَعه ، وآذته فى يقظته وفى نومه ، فشلّت نشاطه وتفكيره ، وجعلت التحايل وسيلته إلى اتقاء الأذى والفرار من البطش ، وإلى اهتبال الرزق من كل طريق ، والتوسل بسعته وبسطته إلى مكان النبل والجاه ، نبل البطش وجاه الجبروت . وحيثما قُضى على النشاط الحر للعقل الإنسانى ، فذلك النذير بانحلال الأمة وتدهورها ، وبدبيب الشيخوخة إلى كيانها .

فالحرية العقلية هى التى طوعت للإنسان منذ أقدم العصور أن ينظر وأن

---

(١) راجع كتاب فتح العرب لمصر ، الفصل الأول والفصل الثالث عشر .

يلاحظ وأن يعلّم وأن يبتكر . أسلافنا الأولون الذين عاشوا فى الغابات وحاربوا الحيوان ، إنما استطاعوا محاربته يوم هدتهم حرية الغريزة إلى ابتكار الأدوات التى استعملوها فى حروبهم فى العصر الحجرى والعصور التى تلته . فلما أقامت الجماعة الإنسانية الأولى على ضفاف النيل وعرفت الزراعة ، ثم عرفت حياة الاستقرار والحضارة أدركت بفطرتها أن لا مفر لها من نظام يكفل لها الأمن وحرية العمل ، وأن لا مفر لنظامها من قواعد ثابتة يقرها الجميع ويحترمونها. وقد هدتهم فطرة الاجتماع الغريزية فى الإنسان إلى تجسيد هذه القواعد ، وتقديس ما ظنوه آلهتهم التى ترعاها وتحميها . ثم ما لبثت هذه الجماعة الأولى ، حين سما تفكير الموهوبين من أبنائها إلى ما فوق الغريزة الفطرية ، أن قدرت معانى العدل والحرية والكرامة الإنسانية . بذلك استيقظ الضمير ، فتفتحت للإنسان أبواب التفكير ، فاهتدى من سبيلها إلى العلم وإلى الأدب والفن ، كشف له أستارها من اختارتهم الأقدار لمعالجتها ووهبت لهم هبتها . وظل التطور الإنسانى يتقدّم فى هذه الناحية حينًا ويتراجع حينًا آخر فى جَزْر ومدّ . وفى كل حين كانت حرية العقل آية تقدم الإنسان ، وجموده آية تراجعه . فإذا تحرر العقل استطاع بقوة تفكيره أن يتحكم ولو بقدر فى قوى الطبيعة . وأن يسخرها لأغراض الإنسان ، وأن يفيد بذلك من هذا التحكم جديداً لرقيّه . وإذا جمد العقل وقف تقدم الإنسانية ، فاكتفت بغريزة حفظ النوع تستجن فى كنفها حتى تبتعثها الحرية العقلية إلى التقدم كرة أخرى .

لم يكن بدٌّ ، وقد جمدت الإمبراطوريتان فارس والروم فدب الفساد فى كيانهما ، من أمة جديدة تنهض فتدفع العالم إلى الأمام . ترى فى أيّة أمة تستكنّ هذه القوة الدافعة ، ومتى يتاح لها أن تظهر ؟ ! ذلك أمر كتبه القدر فى لوحه ، أو هو ، على تعبيرنا العلمى فى هذا العصر ، أمر ثابت فى دورة الزمان والمكان للجماعة الإنسانية ثبوت كسوف الشمس وخسوف القمر وظهور المُذَنَّبات فى دورة الفلك . وقد شاءت الأقدار فألقت على الأمة العربية فى

---

(١) راجع كتاب « فجر الضمير » The Dawn of Concience تأليف برستد وترجمة الأستاذ سليم حسن .

شبه الجزيرة عبء النهوض بالحضارة المتداعية ، وبعث الحياة فى شتّى نواحيها .

قيام النبى العربى فى شبه الجزيرة

ولهذا اصطفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إليه دين الحق يبلغه للناس ويدعو إليه بالحجة والموعظة الحسنة ، عن طريق النظر فى الكون ، نظراً حرًّا من قيود الوثنية والمجوسية ومن الجدلِ العقيم الذى هوت إليه المذاهب المتضاربة فى بلاد الروم . وقد حوربت هذه الدعوة فى منبتها حربًا اتصلت على السنين ، فلم تعرف هوادة ولا صلحًا ، حتى نصر الله دينه وأتم كلمته . وإنما أراد الله لهذه الدعوة أن تنتصر ببساطتها وصفائها وسموها بالكرامة الإنسانية وبالعقل الإنسانى إلى المكان اللائق بهما . وبانتصارها قضى على الوثنية فى شبه الجزيرة كلها قبل أن يختار رسول الله ما عند الله .

لماذا يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق ؟

أما وقد قضت الدعوة إلى التوحيد وإلى مبادىء العدل وسمو الخلق على كل ما يخالفها ، فلم يكن لزعماء الردة فى بلاد العرب أن يحاولوا إعادة الوثنية . وإنما حاول هؤلاء الزعماء استغلال التوحيد والمبادىء المترتبة عليه لينتشر سلطانهم وتعظم فائدتهم فى تجارة الحياة . ولهم من العذر عن ذلك أننا معشر الناس لما نبلغ من سمو الإدراك ما يجعلنا نقيم الحد الفاصل بين الحق لذاته ، والمنافع المادية التى نجنيها من استغلال اسمه والتذرع لخداع الناس بسلطانه . والناس يرون الحق فيبهرهم لألاؤه ، ويَعْشَوْن دون استجلائه فى جلال كماله ؛ لأن الضمير الإنسانى لا يزال فى طفولته ، والنفس الإنسانية لا يزال جوهرها العلوى يختلط بجواهر النقص التى تغشّى عليه وتفسد حكمه .

لذلك يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق . ويحتمل الدعاة الصادقون هذا الأذى راضية نفوسهم ما أدى احتماله إلى ذيوع الحق وانتشار كلمته . وكلما علا صوت الحق اشتد فى حربه من يخشونه على بسطة رزقهم وسلطان بأسهم . ذلك هو النزاع الذى اتصل على الزمان بين المنافع العاجلة والمبادىء الخالدة ، والذى جعل الحرب مسوّغة للقضاء على الباطل وردّ كيده إلى نحره .

طفولة الضمير الإنسانى وآثارها

والضمير الإنسانى لا يزال قريبًا من طوره الذى كان عليه فى القرن السادس المسيحى . فهو لم يشب بعد عن الطوق . لذلك لا تفتأ الحرب تشب لأغراض دون ما قامت حروب الردة وحروب الفتح فى العراق والشام لتحقيقه . ترتفع

الصيحة للحرية وللعدل وللإخاء ، فيلقى الناس بكل سمعهم للمنادى بها ، ويبذلون حياتهم فداء لها ، وتدوّى آلات الدمار لنصرتها . فإذا وضعت الحرب أوزارها ، توقع الناس أن تظلهم المبادىء التى قاتلوا فى سبيلها . لكن ما تحقق من هذه المبادىء لم يزد يومًا على طيف تتبدى وراءه حقيقة نحيفة هى على نحافتها مبهمة غير واضحة المعالم . ومن ثم بقيت الشرور التى شكا الناس منها تثقل حتى اليوم كواهلهم ، ولم تفد مبادىء الحرية والعدل والإخاء من تضحيات الإنسانية إلا قليلا . أما الثمرة الكبرى للحروب الطاحنة فقد آل معظمها إلى الذين يؤمنون بحق الجسد فى النعمة والمتاع ، والذين يبتغون الجاه والمال ويكنزون الذهب والفضة ، ولا يرون بأسًا فى أن يرووا غُلَّتهم للمتاع وظمأهم للمال بما أريق من دماء الإنسانية ، وما بذل من مهج وأرواح فداء للعدل والإخاء والحرية .

وسبب ذلك ما قدمنا من أن الضمير الإنسانى لا يزال أدنى إلى الطفولة . والطفولة كثيرة العثرات . لكن عثرات الطفل لم تصدّه يومًا عن أن يعود فيمشى ليعثر من جديد .

وهذه العثرات هى التى تعلمه كيف يحفظ توازنه حتى تصل به إلى أن يسير مستقيمًا سوىَّ القامة ، يسرع الخُطا إلى فتوة الشباب ثم إلى حكمة الرجولة . ولعل عثرة قاسية تكُبّ الناشىء على وجهه تكون أجدى عليه وأقوى أثراً فى تقويم سيرته . ولقد كانت كبوة فارس والروم من العثرات القاسية التى صادفت الإنسانية ! لذلك كان قيام الإسلام ونهوض الإمبراطورية الإسلامية من أقوى البواعث على تقدم الضمير الإنسانى إلى ناحية نضجه .

استرعى الإسلام سمع الناس ؟

وآية ذلك أن الإسلام إنما استرعى سمع الناس فدانوا به لأنه يصور مَثَل الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرا . فهو لا يجعل للناس إلها غير الله ، هم عباده وحده جل شأنه ، لا يملك لهم أحد غيره نفعًا ولا ضرًّا ، ولا مثوبة ولا عقابًا . وما يصيبهم فى هذه الحياة أو يصيبون فيها يجزيهم الله عنه الجزاء الأوفى . فليعملوا إذن مطمئنين إلى حريتهم ، لا يريدون إلا وجهه . فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه . وإذا

رأوا منكراً فليزيلوه ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

لماذا اصطفى الله نبيه من شبه الجزيرة ؟

لماذا كتب القدر الحكيم منذ الأزل فى لوحه ، فاصطفى الله نبيه الكريم من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ ! .

ليس فى مقدورنا ، ولا فى مقدور غيرنا ، أن يقطع برأى حاسم فى الجواب عن هذا السؤال . فنحن جميعاً لم نؤت من العلم إلا قليلا . لكن ذلك لا يمنعنا من تلمّس سنن الكون والاجتهاد لإدراك ما يقع بمشيئة الله فيه . وما يقع فى حياة الإنسانية وجماعاتها يخضع لهذه السنن الثابتة كما يخضع لها سائر ما فى الكون مما برأ الله . فمن الحق علينا أن نحاول تفسير الظاهرات الاجتماعية على ضوء هذه السنن ، وإن كنا لا نطمع اليوم ، وعلمنا الإنسانى كما هو ، فى أن نعرف ما يطويه غيب المستقبل للجماعات الإنسانية على النحو الذى نستطيع أن نعرف به ما سيكون من أمر الأفلاك ودوراتها .

والذى يهدينا إليه الاجتهاد جواباً عن هذا السؤال أن حضارة العالم استقرت فى الأجيال الأولى من حياة الإنسانية ، وإلى القرن السادس المسيحى ، فى مصر وأشور واليونان ورومية ، ثم امتدت منها إلى ما وراءها ؛ وأن العقل الإنسانى بلغ من النضج فى هذه المناطق ما لم يبلغه فى غيرها ، مما يسّر للضمير الإنسانى أن يستيقظ فيها ويبزغ فجره . ولذلك وجّهت الإمبراطوريتان فارس والروم مصاير العالم فى ذلك العهد ، ونهضتا بعبء الحضارة فيه . فلما آن لهاتين الإمبراطوريتين أن تهرما كانت شبه جزيرة العرب هى المنطقة المستقلة عنهما ، المتصلة مع ذلك بهما ، المتداخلة فيهما . ومهما يكن من أمر هذا الهرم الذى أصابهما ، فالدعوة إلى المثل الأعلى أدنى إلى أن تستجاب فيهما ، وأن تمتد منهما إلى ما وراءهما . هذه كلها أحداث كتبت منذ الأزل فى لوح القدر ، فلا غرو أن يكتب معها منذ الأزل أن يقوم الداعى إلى المثل الأعلى فى أدنى الأرض من الإمبراطوريتين وأكثرها مع ذلك استقلالا عنهما . فالاستقلال هو الكفيل بحرية العقل ، وبأن يستجيب الناس آخر الأمر للدعوة إلى الحق .

وكذلك اصطفى الله للقيام بهذه الدعوة نبيّه من أهل شبه الجزيرة ، ومن

بلد هو أكثر بلاد شبه الجزيرة استقلالا ، وأوفر هذه البلاد لذلك العهد عزة وكرامة .

ودعا محمد قومه إلى التوحيد وإلى المبادىء التى يتحقق بها مثلُ الإنسانية الأعلى ، ثم بلّغ دعوته إلى عاهلى الإمبراطوريتين فارس والروم ودعاهما إلى ما جاء به من الحق . وبذلك أقام الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وحذّر الناس حين دعاهم إلى الحق ممن يخادعون الناس باسمه ، ثم ترك من بعده أصحابه الذين عزّروه فى حياته ونصروه ، والذين أدركوا ما جاء به وامتثلوه .

أبو بكر ونضج ضميره

وأنت قد رأيت كيف بلغ أبو بكر من سمو الإدراك لهذه المبادىء ما مكّنه من أن يقيم فى نفسه الحد بين الحق لذاته والمنافع العاجلة التى يسعى إليها من يخادعون الناس باسم الحق ؛ ورأيته كيف أصرّ على أن ينصر الحق لذاته ولو قام لنصرته وحده . وإذا بلغ سمو الإدراك من نفسٍ هذا المبلغ ، فذلك الدليل على نضج الضمير غاية النضج . ولو أن الإنسانية كلها بلغت يومًا هذا النضج لما شبّت الحرب بين بنيها ، ولاستجاب الله دعوة الذين يدعونه عند بيته المحرَّم : « ربّنا أنت السلام ومنك السلام ، أحينا ربنا بالسلام ! » .

لا يزال الأمد بعيداً بيننا وبين اليوم الذى تستجاب فيه هذه الدعوة . فالناس لا يزالون إذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى غير ما وجدوا عليه آباءهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأبوا أن يجادلوا بالتى هى أحسن ، وحسبوا أن القوة الغاشمة تخفت صوت الحق . ذلك أن ضميرهم لا يزال فى طفولته . والطفل يحسب أنه كلما ضج وعلا ضجيجه خضع أبواه لرغائبه وأهوائه . فإذا رأى أبويه يهذبانه ولا يزعجهما ضجيجه أذعن وسكن . وذلك ما صنع أبو بكر مع أهل الردّة حين ضجوا وحاولوا المقاومة . أخذهم بما يجب أن يؤخذوا به ، فقضى على مقاومتهم وعلى ضجيجهم .

وشاءت الأقدار أن تمهّد لانتشار الإسلام فى فارس والروم بانتشار العرب فى بادية الشام ؛ فقد يسّروا لأهل شبه الجزيرة أن ينفذوا إليهم ، وأن يتخطوهم

لغزو الفرس على شاطىء دجلة والفرات وما وراءهما ، ولغزو الروم فى الشام وفى مصر إلى السودان .

أنت ترى من ذلك كله أن المعجزة التى حدثت فى عهد أبى بكر لم تكن ثمرة المصادفة ، وإنما كانت أمراً محتوماً قضت به سنن الكون التى لا تبديل لها . فلو أن شبه الجزيرة لم تكن تجاور الشام والعراق ، ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة القبائل التى استقرت ببادية الشام منذ قرون ، ولو أن الله لم يصطفِ نبيه فى ذلك العهد الذى اشتد فيه ظمأ العالم لسماع كلمة الحق والاهتداء بنوره ، لو أن ذلك كله لم يكن لجرت المقادير بغير ما جرت ، ولكان تاريخ الإنسانية غير ما نعرف اليوم ، ولما حلّت الحضارة الإسلامية محل حضارة فارس والروم ، بل لاتخذت الحضارة أطواراً أخرى غير التى عرفنا من يومئذ إلى عصرنا الحاضر .

إبراز الأقدار ملكات الرجال

وإذ شاءت الأقدار أن تتم على الأرض مثل هذه المعجزة مهّدت لها بما رأيت ، وهيأت لها أسباب الفوز ، فأبرزت من ملكات الرجال ومواهبهم ما يخطّون به فى صحف الكون مشيئة القدير الحكيم . لقد رأيت ما صنعه أبو بكر وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وأمراء الجند المسلمين ، ورأيت كيف اضطلعوا لذلك العهد بأعباء ما كانوا ليضطلعوا بمثلها لولا أن أراد ربك لهذه المعجزة أن تتم وفاقاً لسنّته . فلولا هذه المشيئة لظل أبو بكر تاجراً ينمو ربحه ويكثر ماله ، ثم تنطوى صفحته ولم تزد مكانته فى قومه على زعامة قبيلة تيم بن مرّة ، وعلى احتمال الديات والمغارم . ولولا هذه المشيئة لظل خالد بن الوليد فارس بنى مخزوم وفارس قريش ، ولما سما اسمه فاقترن على التاريخ بأسماء الإسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وجنكيزخان ، ونابليون ، ولولاها لما أصبح اسم الفاروق عمر بن الخطاب علماً للعدل والرحمة والبأس مجتمعة . فإذا نحن أرخنا اليوم لهم وأشدنا بفعالهم ، وقرنّا سمو الدعوة للحق إلى اسم القائد العبقرى وجعلنا منهما وحدة على الزمان ، لم نَعْدُ بذلك أن نرسم صورة من مشيئة القدر والعوامل التى تهيأت لتنفيذها ، والتى أدّت إلى انتقال الحضارة هذا الانتقال الذى مهد لعهد جديد فى حياة العالم .

الإسلام يدعو للمثل الأعلى والسلام

أما وقد ذكرت القائد العبقرى خالد بن الوليد، فلأقف الآن وقفة قصيرة أتناول مسألة تناولتها فى « حياة محمد» . لكنى أتناولها هنا من غير الناحية التى تناولتها هناك . لقد طالما تحدّث من شاء عن انتشار الإسلام بالسيف . وقد بيّنت فى « حياة محمد » أن القرآن ينكر حرب الاعتداء فى مواضع كثيرة منه . يقول تعالى : «وقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِين يُقَاتِلُونَكُمْ ولَا تَعْتَدُوا إنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين » . ويقول : «فَمن اعْتَدَى علَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدى علَيْكُمْ واتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مع الْمُتَّقِين » .

وهو يدعو إلى الصلح والصفح والتسامح دعوته لحرية الرأى ولدفاع المؤمن عن عقيدته إن حاول غيره أن يفتنه عنها .

فكيف دفع أبو بكر المسلمين للحرب

هذه مبادىء ثابتة فى الإسلام يصور بها المثل الأعلى ويدعو الناس إليه . فما بال أبى بكر دفع المسلمين لحرب الردّة ولفتح العراق والشام ؟ وما بال أمراء المؤمنين بعده نهجوا فى هذا الأمر نهجه وساروا فيه سيرته ؟ لقد كان الصدّيق أكثر المسلمين اتصالا بالنبىّ وامتثالا لما أمر الله به ونهى عنه. أفلا ينهض ذلك دليلا على أن الإسلام ، وإن أقر مبادىء الرحمة والتسامح والصفح ، لم ينكر على الدعاة إليه أن ينشروه ببطش القوة ! ولذلك غزوا البلاد وحكموها ودعوا أهلها إلى دينهم .

الصديق ينفذ ما جاء فى كتاب الله

لا شك أن الصدّيق قد نفّذ فى حروب الردّة ما جاء فى كتاب الله من قوله تعالى فى سورة براءة : «فإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّين وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ .وإِنْ نَكَثُوا أَيْمانهُمْ مِنْ بعْدِ عهْدِهِمْ وطَعنُوا فِى دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ لَعلَّهُمْ ينْتَهُونَ » . وهو لم يعدُ ما أمر الله به حين وافق على غزو العراق وغزو الشام . وليس معنى ذلك أن هذا الغزو هو المثل الأعلى الذى دعا الإسلام إليه وجعل السلام غايته ، وإنما معناه أن ما حدث منه هو بعض إملاء الغرائز الإنسانية فى ذلك الطور من طفولة الضمير الإنسانى ، كما أنه بعض إملاء هذه الغرائز فى عصرنا الحاضر حيث الضمير الإنسانى لا يزال يتدرّج إلى الصبا ، فله من الصبا طيشه ونزواته .

وإملاء الغرائز كثيراً ما أدى إلى عثرات كعثرات الطفل فى سيره ، ترهقه وتؤلمه ، ثم تنتهى به ليسير مستقيماً سوىّ القامة يسرع الخُطا إلى فتوة الشباب وحكمة الرجولة .

الإسلام يقدر الواقع من غرائز الإنسانية

والإسلام لم يغفل ، حين صور المثل الأعلى للإنسانية ، أن بلوغ الغاية من هذا المثل إنما يكون حين يبلغ الضمير الإنسانى نُضْجه . وذلك لا يتم إلا أن تتعاقب عشرات الأجيال ومئاتها حثيثة السعى إليه كيما تدركه . لذلك قدر الإسلام الواقع من أمر الإنسانية وما تمليه عليها غرائزها ، ورسم السبيل التى تسلكها لتقترب رويداً رويداً من غايتها . وكما أنك إذ تُربى ولدك ليبلغ ما تريده له من كمال الجسم والعقل لا تحْمِله على أن يسير سيرة الرجال ، بل تُرضى أهواء طفولته وصباه حيناً وتكبح هذه الأهواء حيناً آخر ، وكما أنك تصادف أثناء ذلك من صلابة الطفولة والصبا ما قد يقف تقدم ولدك تارة ، وتصادف من مرونته وذكائه ما يسرع بتقدمه تارة أخرى ؛ فإذا رأيته صُلباً لم تكسره ، بل لنت له لتلين صلابته ، وإذا رأيته متقدماً أغريته ليتابع تقدمه ويزداد إسراعه فيه ، وربما دعاه هذا الإسراع إلى وقفات تجنى عليه وتؤذيه ؛ كذلك رأى الإسلام أن يساير الضمير الإنسانى فى تدرجه من الطفولة إلى الصبا ، وجعل تهذيب هذا الضمير غايته الأولى ، كما جعلت أنت تهذيب طفلك غايتك الأولى . وهو لذلك يساير الغرائز ليُقوّمها . يلين لها حيناً ويقسو بها حيناً ، جاعلا همه دائماً أن يتجه بها إلى الناحية التى تدنيها من الغاية التى أرادها ، والمثل الأعلى الذى صوره لها .

الضمير الإنسانى وتقدمه إلى النضج

والضمير الإنسانى يجمد أحياناً حتى تخاله ارتد عن تقدمه ، ويسرع السير أحياناً أخرى إسراعاً يخشى معه العِثار . وسيره قد يقف وقد يتغير اتجاهه فإذا القوى التى تدفعه إلى التقدم تضطرب بين أرجاء العالم المختلفة . وذلك ما حدث حين جمدت الأمم الإسلامية وجمدت المبادىء التى دعا الإسلام إليها ، لكن الجمود والوقفة ليسا فى طبيعة الحياة ، لذلك يخفيان دائماً عوامل اندفاع تستكن دونهما ، ثم لا تلبث أن تظهر فإذا الإنسانية تستأنف تقدمها .

وهذا التقدم هو الذى يجعلنا نؤمن بأن الضمير الإنسانى لا بدَّ له يومًا من أن يبلغ الغاية من النضج . وإن اقتضى ذلك أن تتعاقب عليه مئات الأجيال . فإذا بلغ هذه الغاية بلغ المثل الأعلى كما صوَّره الإسلام . عند ذلك يُظِلُّ الأرضَ سلامُ الله ، ويستجيب الله دعاء من يدعونه عند بيته المحرَّم : « ربَّنا منك السلام وإليك السلام ، أحْيِنَا ربَّنا بالسلام » .

يجب أن يسمع الناس جميعًا دعوة الحق فى مختلف أرجاء الأرض خلال تعاقب الأجيال ليتقدَّم الضمير الإنسانى رويداً رويداً إلى النضج . ولن يبلغ النضج مداه حتى يعم الإنسانية كلها . فأما إن نضج الضمير فى ناحية من العالم ثم ظلت غرائز الطفولة ونزوات الصبا تحركه فى سائر الأرجاء ، فسيبقى لسلطان هذه الغرائز والنزوات من الحكم ما يديم النزاع ويديم الحرب ، وما يقتضى قوَّاداً عباقرة من أمثال خالد بن الوليد أن يكونوا الأداة لتهذيب الشذوذ فى كل ناحية لم ينضج فيها الضمير ؛ شأنهم فى ذلك المربى إذ يهذّب شذوذ تلاميذه .

أثر الإسلام فى تقدم الضمير الإنسانى

وإنا لنسجل فى كثير من الغبطة والرضا خطوات تقدمها ضمير الإنسانية من الطفولة إلى الصبا ، لا يصدّنا عن ذلك ضيق هذه الخطوات واضطرابها . ولقد كان للإسلام فى هذا التقدم أعظم الأثر . وسيكون له مثل هذا الأثر من بعد حتى تتم كلمة ربك ويؤمن الناس بالمثل الأعلى فى مشارق الأرض ومغاربها .

ويسرنى وأنا بصدد هذا التسجيل أن أثبت هنا كلمة للكاتب الإنجليزى الكبير بِرْنارْد شُو تؤيد رأيى . قال :

« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى دائمًا لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ؛ لأنه ، على ما يلوح لى ، هو الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

« لا مرية فى أن العالم يعلّق على نبوءات كبار الرجال قيمة كبيرة . وقد

تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

« لقد عمد رجال الإكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدُّونه خصمًا للمسيح . أما أنا فأرى واجبًا أن يدعى محمد منقذ الإنسانية . وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ، نجح فى حل مشكلاته ، وأحل فى العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما ! .

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا فى القرن التاسع عشر ما لدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وجيبون . بذلك حدث تحول صالح فى موقف أوربا من الإسلام . وقد تقدمت أوربا تقدمًا كبيراً فى هذا القرن المتم للعشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب فى القرن التالى أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها .

« وقد دان كثيرون من قومى ومن أهل أوربا بدين محمد فى الوقت الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ »[1].

زعماء العالم الحديث يرددون مثل الإسلام الأعلى

هذه الكلمات التى نقلت إلى العربية من عشر سنوات خلت تؤيد ما قدمت . وها نحن أولاء نسمع اليوم من زعماء العالم عبارات تردد مثل الإسلام الأعلى وتدعو إليه وتستهين بالحرب فى سبيله . ولا تزال الإنسانية تضطرب فى هذه السبيل خلال طوفان جارف من الآلام والتضحيات والدموع . وهى تبذل اليوم منها أضعاف ما بذلت مجتمعًا على القرون التى خلت . أفقدّر لها أن تبلغ ما طالما أمّلتْ بلوغه ، وأن تعيش فى ظلال الحرية والمحبة والسلام ؟ أفيكون النظام الجديد الذى يتحدث زعماء العالم اليوم عنه محققًا حرية الشعوب ، كما حققت الثورات فيما مضى حرية الأفراد ؟ وهل يؤدى ذلك إلى أن يتحرر الجميع صدقًا من قيود الخوف والفاقة ، وأن يتعاونوا تعاونًا خالصًا لوجه الله

---

(١) كلمات برنارد شو مأخوذة من مجلة نور الإسلام عدد ٤٠ صفحة ٥٧٢٠ سنة ١٣٥٢ هـ

يسعد به الناس فى مختلف أرجاء العالم ؟ هذا أمل عذب ما أحبه إلى كل نفس ، وأقربه من كل قلب ؟ وما أشد الناس حرصًا على أن يتم فتتم به على الأرض كلمة الحق والسلام ! .

وتحقيق هذا الأمل رهن بأن يبلغ الضمير الإنسانى نضجه . ترى هل كتب القدر الرحيم فى لوحه أن تتمخض الآلام والضحايا التى احتملها العالم فى هذا القرن المتم للعشرين عن هذا النضج ؟ ! لا ريب عندى فى أن الإنسانية ستخطو فى هذه السبيل خطوة إن لم نستطع اليوم أن نقدر مداها فمن حقنا على كل حال أن نغتبط بها ، وأن نرجو بعدها خطوات أفسح منها . فالعالم اليوم تتقارب أجزاؤه ، وتتزايد وسائل الاتصال بين أبنائه . كانت الصحافة تعدّ فى القرن الماضى أعظم قوة لتيسير التفاهم بين الناس ، ثم كانت صحافة أمريكا لا تصل إلى هذا الشرق العربى قبل أسابيع من ظهورها . أما ما يجرى اليوم فى العالم فيتلقاه الناس فى مختلف أرجائه بسرعة البرق على موج الأثير عن طريق الإذاعة . وهذه الإذاعة المشغولة اليوم بأنباء الحرب وأهوالها ودعاياتها ستشغل غداً بالدعوة إلى السلم وإلى السمو الإنسانى وتصور الوسيلة التى تهيئ أسبابهما . وقد تهذّب هذه الدعوة الضمير وتقرّبه من النضج ، وتجعله الحكم العدل المنزه عن الهوى ، والذى يستطيع لذلك أن يجنُب الإنسانية الحرب ، فيجنبها الضحايا والآلام والدماء والدموع .

متى يبزغ فجر هذا اليوم ومتى تشرق شمسه ؟ إنا نراه بعيداً ، ويراه الله قريبًا . فيومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون . وذلك اليوم الذى تشرق فيه الشمس على الإنسانية وقد نضج ضميرها ، هو اليوم الذى تبلغ فيه الكمال ، ويصبح فيه المثل الأعلى حقيقة واقعة . ويومئذ يصفو جوهر النفس من كل ما يخالطه من شوائب النقص ، فتسمو على إملاء الغرائز الدنيا ، وتمتثل مبادىء العدل والرحمة والبر والتقوى فى نقائها وطهرها ، ثم تصبح سر حياتها ، فإذا مر بها طيف يخالفها لفظته وعدته دخيلا عليها وعرضًا يؤذيها ويتلفها . عند ذلك يكمل إيمان الناس جميعًا ، فيحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وينظر كل منهم نظرة الإشفاق والتألم لكل من تبدو فى نياته أو أعماله شائبة من

أثرة أو نزوة من هوى ، ويرون واجبًا عليهم أن يلتمسوا له الطب وأن يسعفوه بالدواء ؛ فإن برىء فذاك ، وإلا عزلوه عنهم اتقاء عدواه ، ورجاء أن يسمع أثناء العزلة صوت الحكمة. فإذا سَمِعه برىء وعاد إلى الناس وقد صار مثلهم ، وأصبح ضميره قاضيَه الذى يحاسبه وينصف منه من ترد بخاطره خصومتهم ، وأصبحت نفسه التى برأت فلم تعد أمّارة بالسوء هى التى تجعل الناس جميعًا أحب إليه من نفسه ، وآثر عنده منها .

ويومئذ يصبح ضمير الإنسانية ميزان العدل بالقسطاس المستقيم ، فلا تكون أمة خيراً من أمة ، ولا جنس خيراً من جنس ، ولا لون خيراً من لون ، بل تكون الأمم كالأفراد أخوة يربط بينها العدل والرحمة ويدعوانها للتعاون على البر والتقوى ، ويجعلان الأمم الصغيرة آثر عند الأمم الكبيرة من نفسها ، والأمم الضعيفة والأمم القوية سواء فى السعى إلى الخير ابتغاء وجه الله وحده .

حكم أبنائنا علينا وعلى عهد أبى بكر

ويومئذ ينظر أبناؤنا مطمئنين من عالمهم السعيد إلى عالمنا الذى انطوى فى صحف الماضى وطوانا معه . أتراهم يتحدثون بينهم مشفقين مما احتمل هؤلاء الآباء بحكم غرائزهم وشهواتهم، باسمين سخراً من هذه الشهوات والغرائز ، ومن إذعان الناس لها وإسلامهم لحكمها ؟ ! أم تراهم ينصفوننا ، والضمير الناضج منصف بطبعه ، فيقدّرون أن غرائزنا وشهواتنا وآلامنا وضحايانا هى التى أدت بهم إلى ما ينعمون به من سلام وسعادة ؟ ! ما نراهم إلا منصفين : وما نراهم ، إذا قرّ نظرهم خلال هذا الماضى عند عهد أبى بكر ورأوا ما تم فى خلافته القصيرة الأمد من جلائل الأعمال ألا يقولون : رحم الله الصدّيق صفىّ النبى وخليله ! لقد كان ضعيفًا فى بدنه ، قويًّا فى إيمانه. وقد دفع العالم بقوة هذا الإيمان دفعة نشرت فيه لواء الحق وأقرّت كلمته . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أكُلَها كل حين بإذن ربها . والذين جاهدوا مؤمنين لإقرار كلمة الحق لهم عند ربهم جزاء الصدّيقين ، وحسُن أولئك رفيقًا .

ستكون هذه كلمتهم . فهى كلمة التاريخ المنصف . ونحن نقولها اليوم وسيقولها مَنْ بَعْدنا أبد الدهر . ومن أحسنُ قولا ممن جعل الحق حجته ، والإنصاف غايته ! .

obeikandl.com

تقدير وشكر

الآن وقد أراد الله للطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تتم ، فمن الحق علىّ أن أقدر معاونة الذين عاونونى أثناء كتابته ، وأثناء طبعه ، وأن أشكر لهم هذه المعاونة أصدق الشكر .

لقد كتبت فصول هذا الكتاب بين شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ وشهر يونيو سنة ١٩٤٠ فى الفترة التى انقضت بين وزارتى المغفور لهما محمد محمود « باشا » ، وحسن صبرى « باشا » . وكنت إذا فرغت من كتابة بعض فصوله دفعتها إلى الأستاذ سيد نوفل فأملاها على لبيب أفندى فكرى إبراهيم فكتبها على الآلة الكاتبة .

ثم إن الأحوال حالت دون مراجعة الكتاب وتهذيبه إلى شهر مارس سنة ١٩٤٢ . فلما تيسر لى من الفراغ ما مكننى من إعادة النظر فيه جعلت أراجع ما كتبت . وفى منتصف يوليو دفعت ما أتممت مراجعته إلى مطبعة مصر وطلبت إليها أن تتخذ من كتابى « حياة محمد » نموذجًا للطبع فى القطع والطريقة ، ونقّحت الفصول التى رأيتها فى حاجة إلى التنقيح ، ثم دفعتها من جديد إلى الأستاذ سيد نوفل فأملاها على الآلة الكاتبة .

قد عاونى الأستاذ سيد كذلك فى تصحيح تجارب الطبع وأبدى لى أثناءها كما أبدى لى أثناء إملاء الكتاب ملاحظات ذات قيمة . فله عن ملاحظاته ومعاونته وإخلاصه فيهما أجزل الشكر وأصدقه .

ومنذ بدأت أطبع الكتاب تولى الأستاذ عبد الرحيم محمود من أمره مثل ما تولاه من أمر « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » من قبل ، فجعل همه مع دقة التصحيح إلى الدقة اللغوية والتدقيق فى ضبط النصوص والأعلام والألفاظ التى تحتاج إلى الضبط . والأستاذ عبد الرحيم حجة ثقة يعتمد عليه . وقد بذل من الجهد فيما تولاه ما أشكره اليوم له ، كما شكرته من قبل ، مقدراً صدق مودته وإخلاصه لعمله .

وما دمت بصدد التصحيح فلست أنسى جهد الأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا والأستاذ على فوده ، فهو جهد جدير بالثناء .

أما الفهارس فوضعها الأستاذان الشيخ محمد البرهامى منصور والشيخ أحمد عبد العليم البردونى ، فلهما خالص الشكر .

ولست فى حاجة إلى التنويه بعناية مطبعة مصر بدقة الطبع وجماله ، فالكتاب بين يدى القارىء شهيد عليهما . وأحسب القارىء يشاركنى فى شكرها على ما بذلت من عناية دونها كل عناية .

والحمد الأكبر والثناء الأجل لله جل شأنه ، منه الهدى ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله .

محمد حسين هيكل

obeikandl.com